أين الحل 5

الإمام محمد الغزالي

فزعت لما سمعت قائلا يقول : إن ألف مليون صيني قدرت الشيوعية على توحيدهم في دولة كبرى على تنائي الديار واتساع الأقطار ، أما الألف مليون مسلم فيبدو أن الإسلام عاجز عن جمع كلمتهم وحشدهم تحت راية واحدة ... !!

قلت : ويحك ، أبصر ما تقول ..! قال : هل ذكرت إلا الواقع ؟ فأجبته على عجل لو كانت الشيوعية تجمع لسدت الفجوة بين الصين وروسيا ، أو بين الروس وأوروبا الشرقية التي تعنو لهم راغمة ..! قال : هناك أسباب عارضة لهذه الجفوة ! قلت : أولى بك أن تلتمس هذه الأعذار للأمة الإسلامية ، بدل أن تتهم الإسلام نفسه بالعجز عن لمّ الشمل وتكوين الوحدة الكبرى ...!

وعُدت إلى نفسي أفكر وأراجع وأتدبّر ! إن الأمة الإسلامية تعاني صدوعا هائلة ، وهي الآن موزعة على أكثر من سبعين قومية ، أو سبعين جنسية سياسية بلغة هيئة الأمم ولغة « جوازات السفر » على سواء !! والإسلام سواء كان عقيدة أو شريعة عُملة ليس لها رصيد ، وأتباعه يُنال منهم ولا ينالون ويجار عليهم ولا يجيرون ! وذئاب الشرق والغرب تغير عليهم فتفترس ما شاءت من القطعان السائبة دون أن يتمعّر وجه !! إن إحراج يهودي واحد في روسيا يثير عاصفة من الكلام حول حقوق الإنسان ، وحول عداوة الساميّة ، أما مقتل المئات والألوف من المسلمين في إفريقية وآسيا وأوروبا فالخطب يسير ! وقد يثار بعض اللغط ثم تنسى المأساة ، وأول من ينساها المسلمون أنفسهم ... !!!

ما سر هذا الضياع والشتات ؟ ما وراء هذا التفكك والتبلّد ؟ الحق أن الأسباب كثيرة بين سياسية واجتماعية وثقافية ، وأنها بدأت من قديم ، ولكن الكيان الحيّ قد يغالب الجراثيم الوافدة ويهزمها ، وقد يصاب بها ويتماسك تحت وطأتها ، وربما استطاع العيش زمانا وهو يحس بها ويعالجها بمُسكِّنات موقوتة بيد أنه

سيقع فريستها آخر الأمر ما دام لم يتناول لها دواء يجلب العافية ويحسم البلاء ..!

كان المسلمون من مئتي سنة فقط أشدّ هيبة وأعزّ نفرا ـ مع ما تلاحق عليهم من هزائم ـ كانت الأساطيل الأجنبية لا تمر بالبحر الوسيط إلا بعد أن تستأمن من دوله الإسلامية إذ كان المسلمون يفرضون ضرائب على السفن المارّة بشواطئهم ! وسمعت في مجلس مؤرخين وساسة ـ وأنا بالجزائر ـ أن جورج واشنطن لما انتصر في حرب الاستقلال واستقرت الأمور للولايات المتحدة كتب إلى حاكم الجزائر يومئذ ليطمئن على سلامة السفن الأمريكية (!) مبديا مودته .. ـ وتوجد نسخة بالانكليزية لهذه الرسائل ـ كما رفض الجزائريون مهادنة بعض الدول الأوروبية ، برغم توصية الخلافة العثمانية ، وأوقعوا بها هزائم مذلة ..! (1) كان ذلك من قرنين اثنين !! أما اليوم ... فالحديث ذو شجون .. والخلافة الإسلامية لم تلق حتفها في حادثة تصادم ، ولم تفقد حياتها عقب اغتيال مفاجيء .. كلا كلا ، كان نظام الخلافة يترنح ترنّح السكران الفاقد الوعي ، وكانت الأدواء الفاتكة تسرح في جسد الأمة كلها وتهدّ قواها هدًّا ، ومن ثم فإن السلطان عبد المجيد بعد ما وقع في قبضة الانكليز لم يفعلوا به شيئا ، كان أتفه من أن يؤاخذ ! لقد تركوه لقومه أو لعملائهم الذين زهدوا في الخلافة وآثروا الارتداد ...!! وهكذا تلاشت الدولة الإسلامية الكبرى ، لقد غرقت في دوامة من أخطائها قبل أن تنالها سيوف الأعداء ..!

والبحث عن أسباب الوفاة مطلوب ، إن الإسلام ختام الرسالات السماوية ، وتاريخ الأولين في كتابه يحتل أكبر جزء منه ، وذلك لتعرف الأمة الأخيرة لماذا هلكت أمم ونجت أخرى ؟ ويبدو أن المسلمين يقرءون قصص القرآن للتسلية ويسمعون أنباء الحضارات المدبرة والأمم الهالكة وكأن الكلام لغيرهم، والغريب أنهم سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وهم يؤمّلون الخير ! ووقع منهم ولا يزال يقع اعوجاج خلقي وسياسي يترفّع الآخرون عنه ، ومع ذلك يحسبون أنفسهم عباد الله المخلصين ...

وأريد قبل شرح العلل التي أومأت إليها أن أذكر طائفة من سنن الله الكونية في بقاء الأمم وهلاكها . فإن القوانين القرآنية في هذا المجال لها دقة القوانين العلمية التي تسمح بجري السفن في البحار ، ودوران الآلات في المصانع ...

1) في سورة القصص شرح مستفيض لعواقب الحكم الفردي والاستبداد السياسي وشرح آخر لعواقب الطغيان الاقتصادي والاغترار بالمال العريض ، أوجزه المولى تبارك اسمه في هذه الخلاصة « **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا . وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** » فهل أجدت هذه الخلاصة في محاربة الفرعونية الحاكمة والقارونية الكانزة ؟ أم شاعت هذه وتلك في تاريخنا القريب والبعيد .

2) في سورة يوسف ، وفي أطواء فصول مثيرة من الغربة والسجن والإغراء والظلم ، يبرز قانونان جليلان « **إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** » والآخر « **لاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** » الأول نهج خلقي صارم في جدوى الاستقامة ، والثاني الاستناد إلى الله في ارتقاب مستقبل أفضل مهما أظلمت الآفاق في مرأى العين ، فهل تتمّ تنشئة الشباب على هذه القواعد ؟ أم أن التعلق بالقشور هو ديدننا ؟

3) بدأت سورة محمد أو سورة القتال بهذه الآية « **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** » ألا تلمح في هذا المطلع الحاسم أن الإلحاد مهما صحبه من علم مشئوم النهاية ؟ وأن الكفار والفتانين مهما بلغ ذكاؤهم لا بد أن يحرموا بركات

---

(1) لعل تفصيل الوقائع يكون مفيدا . في يوم السبت **1210/2/21 الموافق 1795/9/5** عقدت معاهدة بين « الداي حسن » حاكم الجزائر و بين جورج واشنطن رئيس الولايات المتحدة كي يؤمن الجزائريون الطرق البحرية للسفن الأمريكية ، وكان الأسطول الجزائري سيد هذه المناطق يومئذ ..!

والداي حسن هو باني مسجد « كيتشاوة » شكرا لله الذي نصره على الأسبان في معركة كبيرة ، وقد فرض عليهم أن يذهب وفد منهم إلى الأستانة كي يلقى الخليفة العثماني حاملا معه جرتين من الماء (!) وذلك لأن القائد الاسباني كان قد هزم المسلمين قبل ذلك وحمل معه جرتين من ماء مدينة وهران إلى ملك اسبانيا علامة على أن الصليبيين سوف يرثون القطر كله فلما انهزموا ألزمهم الداي حسن بحمل جرتين أخريين وتقديمهما إلى خليفة المسلمين رمزا لإنهزامهم أمام المسلمين ! إنها تراث قديمة جديدة ! ولسنا المسؤولين عنها ، فمن الوضاعة أن يقدم الرومان من أوروبا فيقاتلوا نبينا في مؤتة وتبوك . وفي سوريا ومصر وفي الأناضول والمغرب ثم يجيء بعدهم أحفادهم المستعمرون الجدد ليكرروا العدوان نفسه ثم يقولون في صفاقة أن الإسلام دين عدوان !! ما أخرجكم أنتم من بلادكم ؟؟

الله ، ويواجهوا الفشل والدمار . وأن التعويل إنما يكون على الإيمان والإصلاح .

4) الرغبة والرهبة أحاسيس مجنونة تلمسها وراء الطمع الجامح والخوف المُذلّ ، فهل يعاني من ذلك إنسان أو شعب يفهم قوله تعالى « **مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ** » إن اضطراب الأعصاب ، ومستشفيات الأمراض النفسية ، وحوادث الانتحار تملأ أقطار الغرب لنضوب هذه الروحانية وانطلاق الجماهير وراء الماديات لا تدري سواها فكيف حصنا أنفسنا من هذه الأوبئة ..!

تدبر هذه الخلاصات المعتصرة من تجارب التاريخ ، ومن حصاد الأمم القائمة والذاهبة وسل نفسك : كم أفدنا نحن المسلمين من تقرير القرآن لها ؟ تدبر هذه الحكم .

5) يقول تعالى : « **إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ** » .

6) ويقول : « **أَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ** » .

7) ويقول : « **لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ** » .

8) ويقول : « **إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ** » .

9) ويقول : « **جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** » .

10) وفي قانون آخر يقول القرآن : « **ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** » .

إن القوانين العشرة السابقة نموذج لما يكفل الحضارات ويحصّن الأمم ، ودراستها حياة ونماء للعقائد والأخلاق ، ومهما كان الوزن لفروع الفقه فهذه الأصول أسبق والعكوف عليها أجدى ، ذلك أنها حقائق والمقابل لها أباطيل ، أو أنها معروف والمقابل لها منكر . أما الاختلاف في كثير من الأحكام الفقهية فلا يعدو أن يكون وجهات نظر قد تكون متساوية الأجر عند من يصوّبون كل اجتهاد ، أو متفاوتة الأجر عند من يرون المجتهدين عرضة للخطأ والصواب . يقول فقهاء : لا بد من قراءة فاتحة الكتاب وراء الإمام ، ويقول فقهاء آخرون لا تجوز قراءتها !! ليكن هذا أو ذاك ، وليختر من شاء ما شاء ، فما يقوم الدين أو ينهدم بأحد المذهبين ، إنما يضيع الدين والدنيا معا بذهاب الخشوع ، واستحكام الأثرة و إطاعة الهوى ، والذهول عن سنن الله الثابتة في استخلاف الصالحين ، وتأديب الجهلة وإهالة التراب على ما يفعلون . ويسرني أن أنقل هنا كلاما للشيخ العلامة محمد رشيد رضا يؤكد هذه الأقوال : « لم يقصّر المصنفون من المتقدمين والمتأخرين في شيء من علم الكتاب والسنة كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن والحديث من سنن الله تعالى في الأمم ! والجمع بين النصوص التي وردت في ذلك ، والحث على الاعتبار بها ! ولو عنوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام ، وقواعد الكلام لأفادوا الأمة بما يحفظ دينها ودنياها . وهو ما لا يغني فيه التوسع في دقائق مسائل النجاسة والطهارة والسَّلَم والإجارة فإن العلم بسنن الله تعالى في عباده لا يعلوه إلا العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله ، بل هو منه أو من طرقه ووسائله .

وقد فطن لهذا الحكماء من العلماء فقال أبو حامد الغزالي في بيان القدر المحمود من العلوم المطلوبة - من كتاب العلم في الإحياء - « أما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى ، وبصفاته وأفعاله ، وسننه في خلقه ، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا ! إن هذا العلم مطلوب لذاته . » . ثم فضّل أبو حامد الغزالي أهل هذا العلم على جميع العلماء من متكلمين وفقهاء ! وأيده في ذلك العز بن عبد السلام إذ استُفْتِيَ فيه فأفتى بصحته ! وبين الغزالي أن هذا العلم هو الذي امتاز به عظماء الصحابة رضي الله عنهم ، وأنه الذي عناه عبد الله بن مسعود لما قال في موت عمر بن الخطاب : مات تسعة أعشار العلم ...

ورواية أبي خيثمة : « إني لأحسب عمر قد ذهب بتسعة أعشار العلم !! » أقول : كان عمر رضي الله عنه أبصر الناس بطبائع الشعوب ، وأسباب ازدهارها واندثارها ، وكيف تبنى الدول وتصان وتنتصر وتؤدي رسالتها ..

وسياسته في المال والحكم أمارة وعي عميق بالإسلام وغاياته ...

بدأ المسلمون رسالتهم العالمية بداية حسنة ، فكانوا ـ أمة ودولة ـ نموذجا حسنا لتعاليم الإسلام ، واستفادوا استفادة صادقة من تاريخ الأمم الأولى ...

جاء الخليفة الأول وليد شورى حرّة وبيعة نزيهة ، وباشر منصبه فقلّت نفقته وهو حاكم يكدح للمسلمين ، عن نفقته وهو تاجر يكدح لنفسه ! ثم شاء ألا يموت حتى يرد إلى بيت المال كل درهم أخذه منه أجرا على عمل ، لتكون ولايته كصلاته وصيامه وحجه ابتغاء وجه الله ، وترفعا عن ذرة من الدنيا ... !! وجاء الخليفة الثاني بعد استطلاع للرأي العام لم يكن منه بد ، ولم يكن عنه عوض ، فإن جيوش المسلمين مشتبكة مع الفرس والروم شرقا وغربا ، فيستحيل أن يتم انتخاب .. وسار عمر سيرة سابقه عدالة وعفة ، وإذا كان المهازيل في عصور كثيرة يسمنون بعد تولّي المناصب ، فإن عمر خرج من منصبه عاريا من أعراض الدنيا كلها ، وقتله علج حاقد في بيت الله وهو يؤم الركع السجود ..

وإذا كانت الأقطار المفتوحة تشكو صلف الغزاة فإن عمر أبى إلا أن تعرف الشعوب معنى الحكم الجديد ، فما كاد يسمع أن ابن عمرو بن العاص والي مصر أهان أحد الأقباط حتى استدعى القبطي المظلوم وأعطاه السوط ليجلد ابن الوالي القرشي المعتدي ... !

هل يعي تاريخ الفرس والروم ، أو تاريخ الانكليز والفرنسيين مثل هذا الدرس ؟

وجاء الخليفة الثالث وليد شورى من كبار الصحابة ، وكان رجلا ذا مال في الجاهلية والإسلام ، عرك أذن خادم له من العبيد ، فرأى أنه أوجعه ، فأعطى أذنه هو للعبد قائلا : اقتصّ لنفسك ، وخجل الخادم ! وألحّ عثمان لأنه يخشى يوم الحساب .

ان فتنا عمياء أحاطت بهذا الخليفة ـ وهو من أنبل خلق الله ـ فطاحت به ، وكان من ورائها ائتمار اليهود والمجوس وسذاجة العرب الذين يعرفون معارك النهار ولا يعرفون مؤامرات الظلام ، ودسائس المهزومين من وثنيين وكتابيين .

وجاء الخليفة الرابع عليّ بن أبي طالب وهو رجل أوتي الحكمة والفروسية وطلب الآخرة وازدراء الدنيا ، بل إن فضائل الإسلام التقت في إهابه وتمثلت في جهاده ، وقد انتهت دولة الخلافة به لأن مصابه فيمن حوله كان أشد من مصابه فيمن قاتله .. !!

ونلاحظ على دولة الخلافة هذه الخصائص : أن الخليفة أكفأ رجال الأمة وأقدرهم على قيادتها ، وأن الشورى كانت مرعية ، فلا افتيات ولا استبداد ولا استعلاء . وأن يد الخليفة في المال العام كانت مغلولة فلا يستطيع توسعا ولا استغلالا أبدا وأن العمل بالإسلام وله في الداخل والخارج كان شغله الشاغل ، ويمكن القول : إن الدولة في صدر الإسلام كانت الوجه الجميل للرسالة الإسلامية ، وكانت صورة حسنة للأمة الإسلامية ...

ثم بدأ تحوُّل يجب عرضه بدقة، نشأ عن طبيعة العرب أنفسهم! فالعرب تشيع فيهم العصبية القبلية ، ولهم اعتداد منكر بالأنساب والأحساب ونزعاتهم الفردية طاغية ، وقد قمع الإسلام هذه الجاهليات في سيرتهم ، بيد أن غرائز هذا الجنس القوي لم تلبث أن اقتحمت سياج الكبت ، وفرضت نفسها على شعبة الحكم في الإسلام ! ثم فرضت نفسها على شعب أخرى اجتماعية واقتصادية وخلقية ...

وهذا التسلل العربيّ المنحرف المغالب لتعاليم الدين ، بدأ لا أقول على استحياء بل على استخفاء وخبث ، فإن الجماهير من العرب وغير العرب كانت أمينة على دينها حريصة على العيش في ظلاله ، فكيف تستطيع العصبيات الشريرة التنفيس عن ذاتها في هذا الجو ؟ على كل حال لقد بدأت التحرك رافعة علم الدين !! وإني أعجب : لماذا يرى عربيٌّ ولد في بطحاء مكة أن لسلالته الحق في حكم شواطىء الهادي والهندي والأطلسي ! ألأن أباه كان عمدة في البلد الحرام ؟ ولماذا يحمل أنظام الخلافة على عاتقه هذا العبء الثقيل ؟ وماذا كسب الدين نفسه من هذه الذرية الضعفاء أو الأقوياء ؟ لكن بني أمية ثم بني العباس فعلوها فاستصحبوا نسبهم « العريق » وهم يفرضون أنفسهم حكاما على الأمة ، ويسوِّغون وجودهم وحدهم في

مناصب القيادة بأنهم أقدر من غيرهم على خدمة الإسلام ونشر دعوته !!

قد تقول : ما لنا ولهذا التاريخ القديم ؟ ولماذا ننبش القبور ؟ والجواب أن الأمر ليس أمر فرد مّا أو جنس مّا ، إنه أمر دين يجب إنصافه ..

فإن الحكم أول ما انحل من عرى الإسلام ، وأمست « الدولة ورجالها » في أغلب الأعصار والأمصار الوجه الدميم للإسلام لأسباب ينكرها الدين نفسه ذلك أن الخليفة لم يكن أقدر الناس على القيادة ، ولا من أقدرهم ، أي أن الكفاءة استبعدت في الترشيح للمنصب ! ثم وهنت أو ماتت أجهزة الشورى ، وانفرد بالتصرف عقل واحد يزعم لنفسه الكثير !

وانطلقت الأيدي في المال العام تغرف منه دون حسيب ولا رقيب ، وذهبت قناطير منه للخدامين والمداحين ، واضطرب العمل بالإسلام في الداخل والخارج على سواء ، بل لم توجد أجهزة رسمية متخصصة للدعوة في أنحاء العالم ، ففحش الجهل بالإسلام ، وحسب الأجانب أن الإسلام دين قتال وحسب !

ربما وهم البعض فظن أن هذه العلة العارضة أصابت الإسلام بشلل مبكر ! وهذا جهل غليظ ، فإن الإسلام ليس حزبا سياسيا قصاراه طلب السلطة ! إنه دين يهيمن على النفوس والأفكار ، ويسوس الناس أولا بالعقائد والعبادات والتقاليد التي يضعها والأخلاق التي يربي عليها والتعاليم التي ينشرها والشعائر التي يرفعها .

والسلطة التنفيذية جزء من مزاجه وهو لم يفقدها منذ بدأ مسيرته وإنما استولى عليها من ليس لها بأهل ! وبقي عدد هائل من العلماء والمربين والدعاة والموجهين والعمال الأتقياء والولاة المحتسبين يعملون للإسلام بصدق وحماس ويوسعون دائرته لتنداح شرقا وغربا ، فكان انحلال عروة الحكم آفة تحمّلها الكيان القويّ كما يتحمل الإنسان السويُّ صداعا اعتراه ، أو كما يتحمل الشاب الجلد دوارا ينتقص قواه ...

إنما ظهرت المأساة مع مر الزمان وترادف البلاء و ... شيخوخة الدولة ، وضعف أجهزة المناعة وقدرة الجراثيم الكامنة على الفتك دون وجل ...

إن العرض العابر سهل الدواء ، وقد يزول وينسى وتذهب آثاره ! لكن غلبة النزعات البدوية والعصبيات العائلية على نظام الخلافة خلّف شرورا شرحناها في أماكن أخرى ، لعل من بينها رخص الكفاءة العلمية والخلقية والإدارية في أسواق التعامل ، واعتقاد الكثيرين أن التقدم والتأخر حظوظ عمياء أو أنها من قبيل المنايا التي قال فيها زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء ، من تصب
تمته ، ومن تخطىء يعمَّر فيهرم !!

وهذا الاعتقاد وحده قاتل للأمم ، فكيف لا ينال من رسالة عالمية كالإسلام ؟ والأغرب أن ترادف الفساد نضح على الميدان العلمي نفسه ، فرأيت « علماء دين » يستخفون بالشورى ، ولا يسمحون لها أن تعترض الحاكم إذا ارتأى رأيا ... ويتحدثون في جراءة أن الشورى غير ملزمة للحاكم الفرد ! وهم معذورون في هذا الخبط ! فإن أحد المفسرين شرح قوله تعالى « **شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** » فقال : ثم امض على الأرشد لا على الشورى !! أي أن ما اتجه إليه هو الأرشد ! وما ارتأته الجماعة هو الأفسد !! وتذكرت وأنا أقرأ هذا اللغو قول فرعون لقومه « **مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ** » ... وكان فرعون يرى قتل موسى ! لماذا ؟ يقول : « **أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ** » فرعون يخاف من فساد موسى !! هذا هو الرشاد الذي يجب أن يطاع ... ومألوف في سيرة الحكم الفردي الإغداق على المؤيدين والأتباع والشح أو الحرمان للمخالفين والمعارضين ، والرأي النزيه لا يتماسك في هذا الجو النكد ، ولذلك كان الحق مرا ! وربما كلف الحياة نفسها . أما الملق فباب واسع إلى الثراء والرفاهة . وهل ضاع دين الله ودنيا الناس إلا بهذا المنطق الوضيع ؟ ذهب رباط المبادىء وبقي رباط المآرب والمنافع ! ذهب الحب والبغض في الله وبقي الحب والبغض لدنيا تنال ، أو لشخص يلتمس في جواره الجاه والمال ...

وذكرت قصة جرير مع عبد الملك بن مروان ، وهو خليفة خطير المكانة ، أو هو المؤسس الثاني لدولة بني أمية ، جاءه جرير الشاعر ينشده قصيدته المشهورة التي مطلعها :

أتصحو أم فؤادك غير صاحي ..؟

فقال عبد الملك : بل فؤادك أنت ! إن مطلع القصيدة لم يسره ..! ولكن الشاعر مضى حتى بلغ هذا البيت :

ألستم خير من ركب المطايا ؟
وأندى العالمين بطون راح !

فطرب عبد الملك طربا شديدا ، وقال : بلى نحن كذلك .. خير من ركب المطايا ، وأسخى الناس أيادي ... وانفتح بيت المال ليأخذ جرير منه ما يشتهي ! وعطايا الخلفاء للمداحين لا نهاية لها ، ألهذا أنشىء بيت المال ؟

قال لي صديق : ذهب وفد من مصر إلى واشنطن عقب اتفاق « كامب ديفيد » وكان يضم أكثر من مائة شخص ، وأقيم لهم حفل طعام في البيت الأبيض ، فكتب صحافي أمريكي يستنكر إقامة حفل لهذا العدد الكبير ، وقال : إن دافع الضرائب في الولايات المتحدة لم يقدم ماله لمثل هذه الأغراض ! وأسرع البيت الأبيض يعلن أن نفقات الحفل قامت بها إحدى الشركات ، ولم تتحملها الدولة ... !!

إن المال العام ليس كَلأً مباحا ، يتخوّض فيه الحاكمون بغير حق ، وصون هذا المال جزء من النزاهة التي تحترم بها الدولة . وسيرة الخلفاء الراشدين بالغة الدقة في احترام المال العام ، ولأمر مّا رفض علماء الإسلام إضفاء صفة الرشد إلا على دولتهم وحدها ، ثم ضموا إليها خامسا وهو عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه . إن علماءنا قديما لم يخونوا دينهم ، والأئمة الأربعة ومن داناهم في مكانتهم ، وجمهور المربين والدعاة ، التزموا هذا النهج ، ثم جاء علماء سوء رأوا الجبن أنجى فآثروا الصمت ! ثم جاء خَلْف آخر يرى إرضاء المستبدين من الدين ... !

الخلافة الراشدة أبوّة محبة ورياسة حانية ! ورباط بالأتباع والأعوان على إنجاح رسالة وحماية دعوة ! أما الخلافة غير الراشدة فالمحور الأول لنشاطها هو امتلاك السلطة وإدامتها ! وتجيء الأهداف الأخرى تابعة ...

وتأمل في معاملة القادة الكبار بين هذين المثالين : لما قتل النعمان بن مقرن في معركة نهاوند بعدما أجهز على المجوسية والكسروية جاء البريد إلى المدينة يحمل نبأ استشهاده ، وكان عمر في إحدى مراحل الطريق يتشوّف للأنباء ، فلما سمع الخبر شهق بالبكاء حتى ان عامل البريد فزع لحزنه ، وقال لأمير المؤمنين مسليا : ليس هناك غيره من القادة أصيب ! فقال عمر : هناك فقراء المهاجرين الذين لا يضيرهم أن يسمع بأسمائهم عمر !! ذاك على عهد الخلافة الراشدة ! أما في عهد آخر فإن قادة الفتوح العظام في المشرق والمغرب لقوا معاملة منكرة ! قتل محمد بن القاسم فاتح السند ، وأهين وعزل موسى بن نصير فاتح المغرب والأندلس ، لأسباب لا تشرف نظام الحكم ..

ولو أن الخلافة الراشدة باقية لكان للقادة العظام شأن آخر ، بل لمضى الفتح في طريقه يؤدب الأوروبيين ، ويتيامن حيث وصل إلى جنوب فرنسا و جبال سويسرا ليشق طريقه نحو النمسا والبلقان والقسطنطينية في شرق أوروبا وبذلك يعود الى الشام متمما الرحلة التي بدأت من مصر ...

إن الخلفاء الأكاسرة لا يكترثون بذلك ! لقد هاجت القومية العربية بغتة في دمائهم وعادت إليهم حمية الأنساب ، وتقاليد البسوس وداحس والغبراء ورجحوا وساوس هذه العروبة الرعناء على وصايا الدين الذي ما كانوا قبله شيئا مذكورا ، وهزموه آخرا بعد ما نصروه أولا ..

وإن تعجب فاعجب لعلماء دين يريدون أن يسوسوا العالم اليوم لا بمواريث الخلافة الراشدة ، بل بتقاليد البدو ومزاج القبائل في صحراء الجزيرة ... محرفين الكلم عن مواضعه ، وذاهلين عن فطرة الله في الأنفس وآياته في الآفاق .!